

علم المصطلح: الأصول والنشأة Terminology : Origin and genesis

د. ألان راي (Alain REY)

تر. عبد النور جميعي*

تاريخ القبول: 2022 / 04 / 18

تاريخ الاستلام: 2021 / 12 / 08

ملخص: يتعلّق موضوع هذا المقال بمسألة أصول علم المصطلح ونشأته؛ بدايةً بالتأريخ للحاجة لتسمية الأشياء منذ العصور القديمة ونشأة التخصّص الذي يعالج هذه المسألة، مروراً بعصر النهضة الحديثة وما شهدته من ظهور حاجات مستحدثة في مجال تسمية منتجات الحضارة وتصنيفها، وازدادت هذه الحاجات مع بدايات القرن العشرين وما صاحبها من تطوّرات في جميع الميادين: السياسية والاقتصادية والسياسية والمعرفية والفكرية؛ والتي كانت بدورها إرغاصات لظهور علم المصطلح الذي يهتم أساساً بالتنظير والتقييس المصطلحي.

كلمات مفتاحية: علم المصطلح، أصل، نشأة، تسمية، تقييس.

Abstract: This article deals with the question of the origins and genesis of the terminology; starting with the history of the need to name things since Antiquity and the emergence of the specialization that deals with this issue, passing through the era of modern renaissance and the emergence of new needs in the field of the denomination and classification of the products of civilization, and these needs have increased with the beginning of the twentieth century and the accompanying developments in all areas: political, economic and political, cognitive and intellectual; Which in turn were the precursors of the emergence of a terminology, which deals mainly with terminological theory and standardization.

Keywords: terminology, origin, genesis, nomenclature, standardization.

يرجع أصل التفكير في الاسم والتسمية -التي هي أساس علم المصطلح- إلى التّمعن في اللغة والمعنى، وسنكتفي هنا بالتذكير ببعض مراحل تكوين حاجة ونشاط خاصين في الغرب خلال العصر الحديث.

1[†]. تاريخ الكلمات والأفكار: الصّناعة

إنّ الحاجة إلى تسمية الأشياء قد تمّ الشعور بها وتفسيرها منذ القدم - تكفي الإشارة هنا إلى كتاب "أقراطوس" لأفلاطون- إلا أنّ فكرة إنشاء تخصص يُلمّ بهذه المسألة والمنهجية التي تقتضيها لم تتّضح إلا بعد عصر النهضة وبشكل تدريجي¹، ويشهد على ذلك تاريخ الكلمات، فقد ظهرت كلمة "صناعة" (nomenclature) (المشتقة من الكلمة اللاتينية: nomen calare) في الفرنسية في القرن السادس عشر بمعنى: مسرد أو قائمة الأسماء، في حين أنّ مفهومها لم يتميّز إلا بشكل متداخل مع مفهوم كلمة قاموس² (dictionnaire) المشتقة من "dictio" أي كلمة منطوقة أو كلام.

* مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، قسم اللسانيات العربية والمصطلحات العربية وعلم الترجمة، الجزائر، djemiai.a@gmail.com (المؤلف المرسل)

وفي المقابل فإنّ كلمة تكنولوجيا (technology) الإنكليزيّة -التي كانت تدلّ سنة 1615 على "دراسة خاصّة بالفنون" (في اللاتينية: artis, ars، وفي اليونانية: tekhné)- قد أخذت في منتصف القرن السابع عشر قيمة خاصّة بكونها "مجموعة من المصطلحات المتعلقة بفن ما".

بيد أنّه رغم وجود بعض المراجع المتفرقة، وورود كلمة تكنولوجيا بهذا المعنى في قاموس القس بريغوست (Prevost) سنة 1750، إلا أنّها لم تلق رواجًا كبيرًا في اللّغة الفرنسيّة؛ فقد كان الحديث بالأحرى عن لغة الفنون، ونعني بها في الوقت ذاته، الخطاب الخاص بالممارسات المضبوطة (التقنيات) والكلمات الضروريّة لتكوين هذا الخطاب، ولم يتوقف الأمر عند الحديث عن هذه الكلمات بل كان المجال مفتوحًا للوصف أيضًا.

يمثل القاموس العالمي لأنطوان فورتيار (Antoine Furetière) (1690) وعمل توماس كورناي (Thomas Corneille) -الأقل نجاحًا والذي تقدّم به إلى الأكاديميّة في نهاية القرن السابع عشر- شعورًا بضرورة الوصف المعياري للمصطلحات العلميّة والتقنيّة؛ في حين أنّ الأمر بالنسبة لفورتيار كان يتعلّق منذ البداية بعلم المصطلح، وليس فقط بصناعة المعاجم باعتبار أنّ النظرة هذه هي خارج لغويّة والقصد منها هو التعميم. لم يتجلّ هذا الوعي لدى العلماء إلا في القرن الثامن عشر، من خلال المشروع الموسوعي الكبير لديدرو (Diderot) وألمبار (Alembert)، على غرار ما قام به المعجمي سامويل جونسون (Samuel Johnson) والموسوعي شامبير (Chambers) في إنكلترا.

وتوكّد ذلك عدة شهادات، خاصّة فيما يتعلق بعلوم الطبيعة، فقد قال بوفون (Buffon): "إنّ أوّل شيء ينبغي أن نحدّده عندما نقوم بتوضيح تاريخ حيوان ما (أي الوصف المنتظم والنوعي)، هو نقد الصّناعة والفرز الدقيق لمختلف الأسماء التي أعطيت له في كل اللّغات وفي كل الأزمنة".

ويعطي هذا البرنامج الفيلولوجي الأدلّة اللّغويّة قيمة إخبارية في بناء المفهوم وتوضيحه، وقد عزّف عالم الطبيعة دو هامل دو مانتسو (Duhamel du Montceau) من جهته الصّناعة بكونها: "فن ترتيب الأشياء الخاصّة بعلم ما، وإعطائها أسماء معيّنة" (عن فيزياء الأشجار)، وخير مثال تطبيقي في هذا المجال - بعد أعمال ليني (Linné) ومن تبعه - يعود إلى غيتون دو مورفو (Gyuton de Morveau) الذي ضبط ابتداءً من سنة 1780 الصّناعة الكيميائيّة، ليلتحق به فيما بعد لافوازي (Lavosier) وبرتولي (Bertollet) وفوركروي (Fourcroy).³ وأضحت بذلك حاجات النّطور العلمي دعماً لعلم الصّناعات، غير أنّ تأثيرات أخرى قد حدثت لما تعلّمت (se scientifise) معرفة الطّبيعة وتقدّمت الأنظمة الصّوريّة بسرعة (الجبر ومنطق ليبنيز: Leibniz)، فضلاً عن التّغيّرات الاقتصاديّة وتنامي البرجوازيّة الرأسماليّة المرتبطة بتقسيم العمل.

وقد شكّلت نصوص ديدرو (Diderot)⁴ في الموسوعة حوالي 1750-1760 ضبطاً وتوضيحاً ملحوظاً لمسألة المفردات التقنيّة، إذ كتب يقول: "إنّ لغة الفنون جد ناقصة لسببين اثنين هما: نقص الكلمات الخاصّة (بهذا

المجال)، وكثرة المترادفات [...] ففي لغة الفنون نجد أن للمطرقة والكمّاشة والمجرفة... الخ تسميات بقدر عدد الفنون الموجودة تقريباً".

وأدهى من ذلك "تغيّر اللغة بشكل كبير من مصنع لآخر"، فالأمر يتعلّق على وجه الخصوص بتقييس ما يُعرف "بتقعيد الفنون"، وهذا ما من شأنه أن ينظّم قيمة استعمال "عدد صغير من المصطلحات المألوفة والمعروفة وتلك المتعلقة "بالمتلازمات" (corrélatifs) (الصفات المحدّدة) ويمكن أن يحدّد هذا التقعيد توليد الاسم حسب اختلاف وتشابه الأشكال والاستعمالات الخاصّة بأداة دون أخرى، وبعمل دون آخر، ومن البديهي أن لا ينطبق تفكير كهذا على العلوم.

وفي الوقت الذي يُطرح فيه السؤال حول دقة التسميات وملاءمتها، تظهر الأهميّة الحيويّة للتقنيات بالنسبة للمجتمع، ثم إن كلا من الجانب النظري لتطور المعارف، والجانب التطبيقي للتحكم في العالم بواسطة تنظيم العمل الإنساني منفصلان تماماً في علاقتهما باللغة.

إنّ مسألة لغة الفنون بالنسبة إلى ديدرو هي في الوقت ذاته مرتبطة بالمفاهيم -أي خاصيّة الكلمات- وبالتدووليّة أيضاً، فمثلاً عندما يُلاحظ تزايد في التسميات حسب الأوساط، فإنّ عجز المفردات التقنيّة بالنسبة إليه ناتج عن الوضع الاجتماعي المهني، وليس عن الصعوبات المتعلّقة بربط الكلمات بالواقع، وفرضيته الكامنة هي أنّ التقنيّة معدّة بشكل كافٍ بحيث لا تتعرّض للتغير السريع، وسرعان ما ستُكدّب وجهة النظر هذه المرتبطة بالعصر ما قبل الصّناعي.

2. علم المصطلح: إذا كانت كلمة "مصطلح" ومقابلاتها متداولة في اللّغات الأخرى منذ مدة، فإنّ موضوع "علم خاص بالمصطلحات" وامتياز عن اللّغة، لم يُعرف بجلاء إلا في النّصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ حيث ظهرت كلمة "علم المصطلح" في اللّغة الألمانيّة بقلم أستاذ في هال (Halle) وإيانا (Iéana) وهو كريستيان غوتفريد شوتز (Christian Gottfried Schütz) (1747-1832)، وأقرّ استعمال الصّفة (terminologisch) سنة 1788، وبعد ذلك بقليل ظهرت في الإنكليزيّة كلمة (terminology) باعتبارها كلمة منافسة للصّناعة.

وتُعاين كلمة (terminologie) في الفرنسيّة سنة 1801، لكن بمعنى جدلي وهو: "الاستعمال المفرط للمصطلحات غير المفهومة" في التّوليد الذي وضعه سباستيان مرسيني (Sébastien Mercier).

إنّ الاستعمال الحديث لهذا المفهوم الموضوعي تبلور على ما يبدو في إنكلترا؛ فقد أعطى تعريف ويليام ويوال (William Whewel)⁵ لهذه الكلمة قيمتها العلميّة، لكنّها بقيت مقصورة على بعض العلوم:

"نظام من المصطلحات المستعملة في وصف الأشياء المتعلّقة بتاريخ الطبيعة"، وربط مفاهيم "النّظام" و"المادة" و"العلم" بالمفاهيم الخاصّة بالمصطلح أعطى هذا التعريف المهمل طابعاً حداثياً متميّزاً.

كما أحدث الاستبدال الجزئي والتّدرجي للصّناعة بعلم المصطلح تغييراً في وجهة النظر، لتحوّل الاسم (nomen) إلى المصطلح: (terminus : borne , limite) حدّ أو نهاية، ليُعرّف بعد ذلك - ومنذ أوامر (Oresme) - على أنّه "ما يُحدّد ويعرّف المعنى"؛ وننتقل بذلك من فكرة سلسلة الأسماء المرتبطة بقوانين

التصنيف إلى فكرة "نظام القيم المعروفة بشكل متبادل"، وإذا أخذنا بما ورد في القواميس الفرنسية في القرن التاسع عشر، نجد أن كلمة (terminologie) عادة ما تشير إلى مجموعة من الكلمات الصعبة والمبهمة وغير المفيدة. وكان يُقال عادة: صنافه غير مجدّية (الأكاديمية)⁶ و"لهجة علمية" (شارل نوديهي) (Charles Nodier... الخ).

وقد انفردت القواميس العلمية المتخصصة بتقديم صورة موضوعية لهذا المفهوم، مثل تعريف بويي (Bouillet)⁷: "مجموعة المصطلحات التقنية لعلم أو فن ما والأفكار التي تمثلها". بينما لم تحصل الدراسة العلمية والنظرية الخاصة بهذا الميدان على اسم، ولم يُشر إلى المعنى الذي يُستعمل له علم المصطلح هنا بشكل عادي إلا نادراً وبكونه اسماً مشتقاً في قاموس أكسفورد (Oxford) (ج11، 1933)، ولم يُقبل إلا في الطبعة الثالثة من قاموس (Webster): "حقل الدراسة" (field of study)، وفي الفرنسية في طبعة 1978 من معجم (Le Petit Robert) بمعنى: "الدراسة المنتظمة للمصطلحات [...] المستخدمة في تسمية فئات الأشياء والمفاهيم...، إضافة إلى المبادئ العامة التي تتحكم في هذه الدراسة". وقد كان هذا الاستعمال شائعاً في اللغتين الألمانية والروسية منذ بضعة عشرات، لكنه لم يتطور في الفرنسية إلا بعد سنة 1960، إضافة إلى المشتق "مصطلحي" (terminologie) بدءاً من كيبك. وما يزال علم المصطلح غير معترف به -باعتباره تخصصاً قائماً بذاته- إلى يومنا هذا⁸؛ فالموسوعات الفرنسية الصادرة مؤخراً تتجاهله بشكل لافت للنظر، وهذا ما يُشكّل بالضبط هدفاً من أهداف هذا الكتيب، أي سدّ ثغرة ما تزال قائمة في علم المصطلح، وقد تخفي هذه الأخيرة تحفظاً أكثر عمقاً.

3. ملاحظات حول تشكّل الميدان:

1.3. العصر الكلاسيكي (القرنان السابع عشر والثامن عشر) في أوروبا الغربية: تمّ في هذا العصر الجمع بين كلّ من النظرية اللغوية والتفكير المعرفي، والتطبيق المتزايد للمنهج الرياضي على المعارف، فضلاً عن ازدياد الوعي بالتطور التقني، مع وضع تربويّ شامل وموسوعي. كما انتظم النّصّور اللّغوي حول "النحو العام" وريث علم الدلالة القديم الذي يعود إلى العصر الوسيط من جهة، والعرف التجريبي الأنكلوساكسوني من جهة أخرى، وتعتبر "دراسة لوك حول الإدراك الإنساني" الأكثر تأثيراً آنذاك، فهي تعالج العلاقات بين الفكر والمعرفة واللغة. وقد وُجّه الطّابع البسيكوفيزيولوجي الذي أعطاه موبرتوي (Maupertuis) وكوندياك (Condillac) على وجه الخصوص -أي "المذهب الحسي" -لهذه الاتجاهات بقوة من قبل الفكر الصوري للبينيز الذي لم يُدرَك جيداً آنذاك، إذ تهجّم لبينيز بشدّة على لوك من خلال بحثه "دراسات جديدة حول الإدراك الإنساني". وقد حدّد كل من لوك وكوندياك المعارضات للفطرية، ولبينيز -الذي هاجم المذهب الآلي- بسرعة من تأثير ديكارت فيما يتعلق بنظرية المعرفة، كما أن فكرة "اللّسانيات الديكارتية" التي كان نوام تشومسكي (Noam Chomsky) متعلّقاً بها كانت عرضة للنقد إن لم نقل النقي تماماً.

وفي نهاية هذه الفترة ستعيد الحويلة النّقدية لكأنّت (Kant) طرح المسألة بمصطلحات جديدة، بيد أن أسبقية الحكم على المفهوم والنشاط المنطقي للإدراك على الكلمات، أسهمت في إغفال المسألة الأساسية المتعلقة بثبات البنى اللغوية وأهميتها في تحليل العالم عن طريق الفكر، وهو ما ألحّ عليه بشدة فلاسفة القرن الثامن عشر.

كما ظهر في العصر الكلاسيكي فكر منظم حول الفنون وممارستها؛ فبعد فرانسيس باكون (Francis Bacon) فيلسوف العلوم، والتقنيات واللغة -الذي يمكن اعتباره أبا لعلم المصطلح الحديث- أسهم عدة مفكرين في هذا الجانب؛ ففي سنة 1643 بين أبراهام بوس (Abraham Boss) النظرية التقنية للبيداغوجيا وتنفيذ القواعد أو ما أصبح يُعرف فيما بعد بالتكنولوجيا، ويكمل هذا النموذج الفكري ذلك الذي عرفه العصر الوسيط وعصر النهضة، إلا أن النمو الاقتصادي أعطاه أهمية جديدة، كما طالب ديكارت من جهته ببيداغوجيا تقنية منظمة. ونجد في صلب هذا النقاش المسألة المصطلحية والحصيلة الموسوعية -كما رأينا- هي ذات أهمية كبرى، إذ أنها مرتبطة أيضًا بالمبدأ القائل: أن العلم هو أولاً لغة جيدة الإحكام.

وعلى الصعيد الفلسفي حاولت إيديولوجية دي ستوت دو تراسي (Desttut de Tracy) أن تُلحق بعلم اللغة علمًا للأفكار يهيمن عليه، وفضل هذه المحاولة -وإن كانت قديمة في بعض مستوياتها -يكن في كونها بينت نقصًا في المجالين النظري والتطبيقي، وفي مجال السيميائيات العامة أو منطق الأدلة وهذا ما سبق أن أشار إليه لوك.

2.3. التنظيم الاجتماعي للغة والتطور التقني والعلمي في القرن التاسع عشر: تعتبر الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، منعرجًا حاسمًا في تاريخ الأفكار بالنسبة لميشال فوكو نظرًا للتغير العميق للمعرفة؛ إذ بدأ التأسيس لبُنى عديدة جزاء التطورات المتواصلة التي أهملتها أو حطمتها الكلمات والأشياء أحيانًا.

إن ميلاد علم للملاحظة يهتم باللغات ونشاطها الخاص، وهو "اللسانيات" أسهم في بلورة مفهوم التسمية؛ إذ لا يمكننا أن نسمي إلا في لغة ما باعتبارها نظامًا من البنى الوظيفية والشكلية ولنكتشف إذن ضرورة وجود علم لهذه الأشكال، ومن ثم استحدثت كلمة "علم الصرف" من قبل غوته (Goethe).

أما من الناحية التاريخية فقد أسهمت التيارات الوطنية في إذكاء الوعي، وعرف المذهب الرومانسي ماهية الثقافة واللغة (أو بالأحرى استعمال لغة معينة)، كما اعتبرت الفيلولوجيا أن النصوص هي السبيل الوحيد لمعرفة الإنسان التاريخي والاجتماعي.

ثم إن نشوة النصر التي طبعت المواطن الفرنسي في القرن الثامن عشر، والتخلي المُخجل عن اللغة الراقية، أخلت الميدان لفائدة مجموعة من الأشكال المنبوذة والمهملة (اللهجات والفرنسية القديمة... الخ) التي أضحت محلا للاهتمام.

وبعد الإنكليزية جاء دور كل من الألمانية والروسية، ثم لغات المجموعات المقهورة ومنها على الخصوص: المجرية والبولونية والرومانية... للمطالبة بنظام ثقافي أكثر ملاءمة. كما تأسست النظريات اللسانية على نطاق واسع لتبرير الحاجات الاجتماعية، ويرجع عدم وجود "اللسانيات" بمعناها الحديث في فرنسا خلال القرن التاسع عشر (مع أن الفيلولوجيا كانت رائجة) إلى كون الفرنسية -الشديدة الثقة بنفسها- لم يعد لها من وسائل تصلح لأفكارها الغامضة هذه.

إنّ مؤسسي العلم الجديد كانوا دانماركيين مثل راسك (Rask) وألمانيين مثل غريم (Grimm) وفرانز بوب (Franz Bopp)، بعد كلّ من شليجل (Schlegel) وويليام فون هومبالت (William Von Humbolt) ...، وستتخلّى أوروبا ولغاتها العالميّة الكبرى جزئياً عن هيمنتها على المعرفة.

أمّا بالنسبة للمعطيات اللسانية الاجتماعيّة فقد انتظمت التدخليّة (interventionnisme)، باعتبار أن السياسة "اليقوبية"⁹ في فرنسا قد دشنت مع القس غريغوار (Grégoire) استبداديّة جدّ واعية وعنيفة إلى حد ما.¹⁰

كما أنّ الاندماج الناتج عن التطورات الاجتماعيّة والاقتصاديّة - التمدّن والتصنيع والنقل ... - والنمو التّربوي لدى الجماهير، إضافة إلى ازدياد الوعي الوطني، أوجدت سياسات واضحة إزاء المعايير الثقافيّة واللغويّة وشجّعته. وعرفت البلدان المتطوّرة حظراً منظماً للغات الأقليّات واستعمالاتها، فضلاً عن تقويمها بشكل تام؛ حدث ذلك في فرنسا كما نعلم منذ الأعمال التحرّريّة الجهويّة الحديثة، وفي بريطانيا العظمى أيضاً؛ حيث اندثرت اللّغات السلتية دون ضغوطات أو موجات عنف.

وفي الولايات المتحدة حيث انصهرت العادات والتقاليد الثقافيّة للمهاجرين في بوتقة حضارة أحاديّة اللغة، وتم القضاء على اللّغات الهنديّة والناطقين بها.

وباستثناء بعض التشكيلات السياسيّة (بسويسرا وبلجيكا...) لم تنج إلا بعض الدّول الحديثة من التّقييس الموجّد (normalisation unifiante)؛ الذي يسهل التّديد به - وبسخط أيضاً - رغم أنّه مرتبط بضرورات الحياة الخاصّة بالأُمم والدّول.

في الوقت ذاته فرض الاستعمار على مجموعات كبرى بعض لغات الإدارة والتّجارة والثقافة، مما أخلّ بكلّ التّوازنات اللّغويّة، لكنّه جعل المجموعات الاجتماعيّة الأسيويّة والإفريقيّة تتفتح على العالم من خلال اللّغات الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة والهولنديّة، بعد كلّ من الإسبانيّة والبرتغاليّة، وهذا ما زاد من دورها العالمي بشكل معتبر، لكن باستعمال عنف لا يوصف، ولا يزال التّاريخ شاهداً عليه.

وعلاقة هذا التّطور بالمسألة المصطلحيّة واضحة جليّة؛ فالحاجات إلى التّسميات التي تزايدت بشكل مذهل، تدخل ضمن نطاق أكثر صرامة لبعض اللّغات التي تتحكم فيها الدّول القويّة، ولم تكثر الحاجات إلا في وقت عرفت فيه العلوم والتّقنيات وكذا تبادل المعلومات تغيّراً وتسارعاً مذهلين؛ ويمكن أن نجد المعطيات العمليّة لهذا التّطور في تاريخ التّقنيات¹¹، فبفضل تسويت الحديد (puddlage)¹² - الذي اكتشف سنة 1783 - عرفت صناعة المعادن قفزة نوعيّة، كما أنّ الصّناعة النّسيجيّة تطوّرت بفضل الاختراعات الإنجليزيّة في القرن الثامن عشر.

وقد تغيّرت المعطيات خاصّة بتراجع التّيار التّجريبي الحرفي الذي انتقده ديدرو، إضافةً إلى علمنة (la scientification) الممارسات التّقنيّة، كما أنّ علماء من الطّراز الأوّل لم يُعنوا بالاستخدامات الصّناعيّة في أعمالهم على غرار برتولي وشفرول (Chevreul)، وولّدت التّطورات الحاصلة في علم البصريّات تقنيات قابلة للتّصنيع كالفوتوغرافيا... الخ، كما سمح علم الميكانيك النّظري بالتّحكّم في موارد الطّاقة... الخ؛ وتضاعفت بذلك حاجات التّسمية مع الخطاب التّقني العلمي في بعض اللّغات المستعملة من قبل المجموعات السياسيّة الكبرى، ثمّ

إنّ التّقنيّة رغم أنها عقّدت بشكل كبير الوسائل والطرق، إلا أنّها عمّمتها ووحدتها، جاعلةً بذلك التّجانس النّسبي للمفردات شيئاً ممكناً.

3.3. نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: شهدت هذه الفترة تحولات جديدة ومثيرة، إذ حدثت

تغيّرات عميقة في مختلف الجبهات: الاقتصاد والممارسة والسلطة الاجتماعيّة والسياسيّة، وأخيراً العلم والمعرفة. ولما كان على علم المصطلح أن يلي حاجات مستعجلة وملموسة فإنّه تسرّ خلف نظام من الأفكار الجامدة في الوقت الذي قادت فيه الرّغبة في الفعاليّة إلى إعطائه الوسائل الآليّة؛ إذ أدّى ارتباط الإلكترونيك والإعلام الآلي بالحرف القديمة نسبياً إلى انتكاسات خطيرة، وقد عرفت التّرجمة هذا الوضع، كما عانت منه صناعة المعاجم. وسنرى هنا الانعكاس الجد متميّز لهذا المشكل العام؛ إذ أنّ الطرق النّاتجة عن تطبيقات العلوم الأكثر صوريّة، هي صعبة الاستعمال في المعارف المتغيّرة والتي توهم نفسها باسم راق وغير مضبوط ألا وهو "العلم". وبرجعنا إلى موضوع علم المصطلح -خاصّة الممارسات التّطبيقيّة منه- نشهد تعميماً للإجراءات على مستوى المعمورة، ونتج عن ذلك تعايش لعدة مستويات تقنيّة من العصر الحجري إلى عصر الطاقة الذريّة، في عدة بقاع من العالم.

ولم يكن عامل التّعقيد هذا أسوأ شيء، ففي الواقع إنّ الانتشار الواسع للمعلومات المرتبط بالنّمو السّياسي والتّقني، مقترن بتأثيرات معيقة كالتّعميم الخادع والاستعمالات الإيديولوجيّة لمعطيات "العلم" والنّقاشات غير السّويّة والزخم النّاتج عن التّدخل المفرط لقنوات الإعلام (حقيقةً أو مجازاً) فضلاً عن الهواجس الجماعيّة النّاجمة عن الانتقاء الخاص (النّفعي) بل والعشوائي للمعلومات.¹³

وموازاة مع ذلك فإنّ علميّة الممارسات جعلت إمكانيّة انتشار المعرفة دون تشويه كبير تتناقض تدريجياً وهذا رغم التّطور الملحوظ للتّربيّة والإعلام من ناحية الكم، وقد أصبح علم المصطلح ضرورة ملحّة، باعتباره علاجاً للخطاب المعرفي، مع تعقّد هذه المهمة المنوطة به (فتعقّب الكلمات الواسعة والجوفاء، و"الببغاوات" التي انتقدها فاليري "Valéry" بشدّة، كان بمثابة شاهد على حالة الاضطراب الفكري، وأبرز نقد لهذا الوضع).

أمّا بالنّسبة للهيئات النّظاميّة -الاقتصاديّة منها والسياسيّة والاجتماعيّة- فإنّ النّمو كان أكثر إثارة؛ إذ حلت تقنيات التّحكّم في الرّأي وتلك المتعلّقة بالصّراع على الحكم والقمع والاضطهاد -بل حتى التّعذيب والإبادة - محلّ المواجهات العنيفة.

وكما رأينا فإنّ الأزمة المعرفيّة مسّت في بادئ الأمر عمليّة نقل المعرفة وتكوينها، وزال الاعتقاد السّائد بأنّ الرّابط المعرفي والعلاقة بين الذات والموضوع، هي مبسّطة بشكل لافت، وممحصّة عن طريق العلم؛ فهو يُقرّ بأنّ المادة¹⁴ موجودة في الموضوع الذي يشكّلها.

وقد انتقل هذا الموضوع من الفلاسفة والشّعراء إلى العلوم الطّبيعيّة؛ فمنذ زمن بوهر (Bohr) وهيزنبرغ (Heisenberg) لم يكن بمقدور أي إبستمولوجي أن يتجنّب الحديث عنه.

وقد أظهرت التّساؤلات الحرجة للأنثروبولوجيا -المرتبطة بأزمة الدّليل اللّغوي -الاضطراب الكبير الذي تتخبط فيه المعرفة النّظريّة.

وتساءل فوكو في الفصل الأخير من كتابه "الكلمات والأشياء" (les mots et les choses) عن استقرار هذا التحوّل الحديث جدًّا -في مجمله -من تاريخ الأفكار أي الإنسان باعتباره موضوعًا للمعرفة. ويمكننا أن نتساءل بدورنا هل يغيّر الانسجام المفترض بين مادة المعرفة وموضوعها، نشاط التّصور "العلمي" ذاته، والمكوّن من الموضوعات (الصّوريّة أو الطّبيعيّة) اللاإنسانيّة؟ والعلم في بحثه عن اكتشاف الإنسان يمكنه أن يصبح مُلزمًا بتغيير طبيعته، وتظهر الرّوابط بين العلم والتّقنيّة على أنّها مخلة أيضًا بالعلاقات المعتمدة بين النّظريّة والتّطبيق. وقد انتقلت المصطلحات التي نشأت في العلوم الصّوريّة إلى العلوم الطّبيعيّة، ثمّ إلى مجال العفويّة اللّغويّة؛ وهو مجال خاص بصورة الإنسان ونشاطاته، ولا وجود لمصطلحات تقنيّة بدون رؤية علميّة للنشاط الإنساني بل و"علميّة" (scientiste) قبل ذلك أي بدون "مشروع لعلم الإنسان".

لكن ما كدنا نصدق علميّة (la scientification) الواقع المعيش هذه، حتى بدأت أنظمة التّصورات والأسماء التي كنا نخالها أكثر ثباتًا تتساءل عن أسسها؛ ومن هنا بدأ التّشكيك في كل شيء؛ إذ أحدثت الأسماء والمفاهيم مشكلة في الرّياضيات وعلم الاجتماع على حد سواء -أو حتّى في فن الطبخ أيضًا- وخضعت القطاعات المحفوظة ظاهريًا كالصّناعات والعلوم التّطبيقيّة والهيئات -تحديدًا- للممارسة المسماة "بعلم المصطلح"، ويبدو أنه يتحرك بهدوء.

لكن أهميّة هذه المجالات تتحدّر دائمًا من علاقاتها بالقطاعات الجوهريّة التي تعتبر بمثابة مواطن للنقاش، أو أنها تخضع للأهميّة المتعلقة بالخطابات، ويحتمل أن يكون الاتجاه الوضعي -الذي يحكم عادة النّظريّة المصطلحيّة -مرحلة ضروريّة أثناء تشكّل النّظريّة.

لكن التّفاوت الموجود بين الرّغبة في الوصف، وعدم معرفة الأشياء التي يُراد وصفها، حكم على هذا النشاط بالعجز (أو بكونه نظامًا متواضعًا يساعد على الترجمة والتّوثيق)، في حين أنّ الأمر يتعلّق في الواقع بقسم أساسي من المعارف الضّرويّة لتلبية حاجة أساسيّة وأوليّة لكل تنظيم اجتماعي.

4. هوامش:

¹ كُتبت عدّة نصوص أساسية في الفترة الممتدة بين أفلاطون والقرن السادس عشر: الرواقيون وسانت أوجستين (Saint Augustin) وسانت أنسلم (Saint Anselme) وما جاء في الفكر الهندي وما أتى به الفلاسفة، والنّحاة والمعجميون العرب، كما نجد المأثورات الفلسفية والنّحوية للعصور الوسطى حافلة بأفكار عميقة حول اللّغة وعلاقتها بالأشياء والفكر.

² اصطلاح على استعمال كلمة "قاموس" في مقابل كلمة (dictionnaire)، و"معجم" في مقابل كلمة (lexique)، لذا سأحافظ على هذا الاستعمال في هذه الترجمة. (المترجم)

³ غيتون دو مورفو (Guyton de Morveau)، جدول الصّناعة الكيميائيّة، 1782: (Tableau de nomenclature chimique)

- لافوازي (Lavoisier)، حول ضرورة إصلاح الصّناعة الكيميائيّة وتحسينها في: "الصّناعة الكيميائيّة والترادف القديم والحديث"، 1787.

(Nomenclature chimique et synonymie ancienne et moderne)

في حين أنّ الصنافة التي وضعها ليني وتاريخ الطبيعة برمته في القرن الثامن عشر يتعلّقان بهذه الوحدة العميقة للغة التصنيفية وللمعرفة التي أبرزها وشرحها ميشال فوكو (M. Foucault) في كتابه: (Les mots et les choses)، ثم إنّ الكيمياء التي أرساها مورفو ولافوازي تدخل في إطار المنهجية الوظيفية الحديثة، كما أنّ الأنظمة الوصفية والتفاضلية وتنظيماتها الخاصة بالسمات المميزة، ستغذيها معرفة الإجراءات والوظائف، وليس فقط معرفة المميّزات القابلة للوصف من ناحية الحيز المكاني والرؤية حسب مخطط تمثيلي.

كما يعطينا عالم النبات تورن فور (Tournfort) -وبتصوّر نموذجي لهذه الحالة القديمة المتعلقة بعلوم الطبيعة- منهجاً لا يقلّ شأنًا، إذ لا يزال صالحاً لقسم من علم المصطلح: "إنّ معرفة النباتات هي المعرفة الدقيقة للأسماء التي أعطيت لها مقارنة ببنية بعض من أجزائها [...]". ويجب أن تكون فكرة "الخاصة" أو "الميزة" التي تميّز بشكل ثابت بين النباتات موحدة باسم كل نبتة ".

(عناصر علم النبات " ص 1-2، ذكر هذا المقتطف في كتاب: " Les mots et les choses ").

⁴ كان ديدرو على غرار لوك (Locke) جد منشغلاً بمسألة العلاقة القائمة بين المفاهيم والكلمات، ونلمس أثر هذا الانشغال في أعماله الأدبية مثل: (Le neveu de rameau).

⁵ هو إبستمولوجي وأخلاقي إنكليزي (1794-1866)، وتُشكّل أعماله تاريخ العلوم الاستقرائية (1837)، وفلسفة العلوم الاستقرائية (1840) عماداً لتاريخ العلوم وأحد النصوص المؤسّسة للإبستمولوجيا.

⁶ في الوقت الحالي تنتقد الرطانة (Jargon) الخاصة بالعلوم (إتيامل - Etiembl).

⁷ Dictionnaire des sciences, des lettres et des arts, 1864, 7^e éd.

⁸ يُقصد هنا سنة صدور الكتاب في طبعته الأولى (1979). (المترجم).

⁹ اليعقوبية: "مذهب نادى به الحزب المتطرّف في الجمعية الوطنية الذي كان يطلق على أعضائه اسم اليعاقبة أو الجبليين، والذين كانوا من غلاة الديمقراطية والحرب بلا هوادة على التكتل الأوروبي أثناء الثورة الفرنسية".

(يُنظر: يوسف محمد رضا، الكامل الوسيط قاموس فرنسي -عربي مفصل، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1990، ص505). (المترجم)

¹⁰ يُنظر: م.دو سرتو (M.de Certeau) و د.جوليا (D.Julia) و ج. ريفل (J.Revel) :

«Une politique de la langue», Gallimard, 1975, - bibl. des Idées.

وألان راي (A.Rey): «Révolution, histoire d'un mot», Gallimard, 1989.

¹¹ يُرجع إلى الأجزاء العديدة لسلسلة: (Que sais-je?) المخصصة لهذه المسألة؛ بدءاً بدوكاسي:

(P. Ducassé : Histoire des techniques) (رقم 126)، وإلى معالجة أكثر توسعاً لدوما:

(M. Daumas : Histoire générale des techniques, Paris, PUF , 1964-1969) في ثلاثة أجزاء، إضافةً إلى:

(«Encyclopédie de la Pléiade» Histoire des techniques, paris, Gallimard, 1978) تحت إشراف ب. جيل

(B.Gille).

¹² تسويط: تحريك الحديد المصهور مع مادة مؤكسدة لجعله سهل التشكيل.

(يُنظر: إ. و. حداد؛ معجم المصطلحات الفنيّة والعلمية والهندسية، فرنسي-عربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د.ت، ص 565). (المترجم)

¹³ رغم أنّ المعطيات هي في أصلها تجريبية، إلا أنّ الانعكاسات الاجتماعية للموضوعات التقنية والعلمية والولوع أو الهلع، تستعمل العتاد بطريقة ملتوية لأغراض صعبة الإدراك: عندما نفكر في طابع الخطاب الخاص باستكشاف الفضاء، والعوامل المحدثة للسرطان والمرض والتلوث والأرصاد الجوية...

¹⁴ سؤال آخر: أي مادة؟ إنّ كل من علم الظواهر (phénoménologie) والماركسية وعلوم النفس العميقة، فجّرت وهم المادة الخالصة، الحاملة للعقل الأول (logos)، وكلام العقل (la raison-parole)، الذي يُشكّل أو يعكس حقيقة معيّنة، فالإنسان لم يعد بمثابة "حيوان عاقل" فحسب.

الملحق: النص الأصلي

CHAPITRE PREMIER

ORIGINES ET GENÈSE

Qu'y a-t-il dans un nom ? Ce qu'on appelle rose
Avec tout autre nom embaumerait autant...

SHAKESPEARE, *Roméo et Juliette*.

Est-ce qu'on sait ce que c'est qu'un pinson
D'ailleurs il ne s'appelle pas réellement comme ça
C'est l'homme qui a appelé cet oiseau comme ça
Pinson pinson pinson pinson
Comme c'est curieux les noms
...

PRÉVERT, *Paroles*, « Dans ma maison ».

A l'origine des réflexions sur le nom et la nomination, base de la terminologie, se trouve toute la réflexion sur le langage et le sens. On se bornera à rappeler ici quelques étapes dans la constitution d'un besoin et d'une activité spécifiques, en Occident et à l'époque moderne.

I. — Histoire des mots et des idées : nomenclature

Si la nécessité de nommer les choses a été ressentie et commentée depuis l'Antiquité — qu'il suffise de mentionner le *Cratyle* de Platon —, l'idée d'une discipline consacrée à ce problème et celle

d'une méthodologie nécessaires ne se dégagent que peu à peu, après la Renaissance (1).

L'histoire des mots l'atteste. Si *nomenclature* (du latin *nomen calare*) apparaît en français au XVI^e siècle au sens de « glossaire, liste de noms », le concept ne se distingue que confusément de celui de *dictionnaire* (de *dicio* « mot prononcé, parole »). En revanche, l'anglais *technology*, qui désigne en 1615 un « traité concernant les arts » (lat. *ars*, *artis*, grec *tekhné*), prend au milieu du XVII^e siècle la valeur spéciale de « ensemble de termes propres à un art ». Mais, malgré quelques références isolées, et la présence de *technologie* dans cet emploi au *Dictionnaire* de l'abbé Prévost (1750), le mot n'aura guère de succès en français. On parle plutôt de *langue des arts*, entendant par là à la fois le discours spécialisé sur les pratiques réglées (techniques) et les mots nécessaires à la formation de ce discours. Et l'on ne se contente pas d'en parler : on décrit. Le *Dictionnaire universel* d'Antoine Furetière (1690), le travail moins réussi de Thomas Corneille pour l'Académie représentent, à la fin du XVII^e siècle, la nécessité ressentie d'une description normée des termes scientifiques et techniques. Chez Furetière, il s'agit bien déjà de terminologie, et pas seulement de lexicographie, dans la mesure où l'optique est extra-linguistique et l'intention universalisante.

C'est au XVIII^e siècle que se développe cette prise de conscience chez les savants, et dans l'immense entreprise encyclopédique de Diderot et d'Alembert. Il en va de même en Angleterre avec le lexicographe Samuel Johnson et l'encyclopédiste Chambers.

De nombreux témoignages en font foi, surtout en ce qui concerne les sciences de la nature. Buffon écrit : « La première chose que l'on doit se proposer lorsqu'on entreprend d'éclaircir l'histoire (= description systématique et spécifique) d'un animal, c'est de faire une critique de la nomenclature, de démêler exactement les différents noms qui lui ont été donnés dans toutes les langues et dans tous les temps. » Ce programme philologique confère aux signes du langage une valeur informative dans la construction et l'« éclaircissement » de la notion.

(1) Entre Platon et le XVI^e siècle, bien des textes fondamentaux ont été écrits : les stoïciens, saint Augustin, saint Anselme, la pensée indienne, les philosophes, grammairiens et lexicographes arabes, la tradition philosophique et grammaticale du Moyen Âge fourmillent de profondes réflexions sur le langage en relation avec les choses et la pensée.

De son côté, le naturaliste Duhamel du Montceau définit, en 1758, *nomenclature* : « Art de classer les objets d'une science et de leur attribuer des noms » (*De la physique des arbres*). L'exercice le plus impressionnant dans ce domaine, après celui de Linné et de ses successeurs, est dû à Guyton de Morveau, qui réforme à partir de 1780 la nomenclature chimique et s'adjoit bientôt Lavoisier, Berthollet et Fourcroy (1).

Ce sont donc les besoins du développement scientifique qui sous-tendent la science des nomenclatures. Mais, au moment où la connaissance de la nature se scientifie et où les systèmes formels (algèbre, logique leibnizienne) font des progrès fulgurants, les changements de l'économie, la montée d'une bourgeoisie capitaliste, liée à la division de travail, entraînent d'autres effets.

Les textes de Diderot (2) dans l'*Encyclopédie* constituent vers 1750-1760 une mise au point remarquable sur le problème des vocabulaires techniques : « La langue des arts, écrit-il, est très imparfaite pour deux causes : la disette des mots propres et l'abondance des synonymes [...]. Dans la langue des arts, un marteau, une tenaille, une auge, une pelle, etc., ont presque autant de dénominations qu'il y a d'arts. » Pire encore : « La langue change en grande partie d'une manufacture à une autre. » Il s'agit donc surtout de normaliser : « une grammaire des arts » pourrait systématiser la valeur d'usage d'un

(1) GUYTON DE MORVEAU, *Tableau de nomenclature chimique*, 1782. — LAVOISIER, Sur la nécessité de réformer et de perfectionner la nomenclature de la chymie, in *Nomenclature chymique et synonymie ancienne et moderne*, 1787.

Alors que la nomenclature linnéenne et toute l'histoire naturelle au XVIII^e siècle relèvent de cette profonde unité du langage classificateur et du savoir, que M. FOUCAULT a dégagée et commentée (*Les mots et les choses*), la chimie de Morveau et Lavoisier s'engage dans la méthodologie fonctionnaliste des temps modernes. Les systèmes descriptifs différentiels et leurs organisations de traits pertinents vont s'alimenter à la connaissance des processus et des fonctions, et non plus seulement à celle des caractères descriptibles en termes d'espace et de vision, selon la représentation « en tableau ». Un botaniste comme TOURNEFORT, avec une conception typique de cet état ancien des sciences de la nature, n'en donne pas moins un programme encore valable pour une partie de la terminologie : « Connaître les plantes, c'est savoir précisément les noms qu'on leur a donnés par rapport à la structure de quelques-unes de leurs parties [...]. L'idée de caractère, qui distingue essentiellement les plantes les unes des autres, doit être invariablement unie au nom de chaque plante » (*Eléments de botanique*, p. 1-2 ; passage cité dans *Les mots et les choses*).

(2) A la suite de Locke, DIDEROT était très préoccupé par le problème du rapport entre notions et mots. On voit la trace de cette préoccupation dans son œuvre littéraire, par exemple dans *Le Neveu de Rameau*.

« petit nombre de termes familiers et connus » et celle des « corrélatifs » (adjectifs de détermination), puis elle déterminerait la création d'un nom selon « la différence et la ressemblance des formes et des usages d'un instrument et d'un autre instrument, d'une manœuvre et d'une autre manœuvre ». Il va de soi qu'un tel raisonnement ne s'appliquerait pas aux sciences. Donc, au moment où est posée la question de l'exactitude et de la commodité des désignations, en même temps que se révèle l'importance vitale des techniques pour la société, l'aspect théorique du développement des connaissances et l'aspect pratique de la maîtrise du monde par l'organisation du travail humain sont nettement disjoints dans leurs rapports au langage.

Pour Diderot, cette question du « langage des arts » est à la fois notionnelle — la « propriété » des mots — et pragmatique — par exemple, quand il constate la prolifération des désignations selon les milieux. Les infirmités du vocabulaire technique, pour lui, viennent de la situation socioprofessionnelle, et non de la difficulté d'articuler les mots à la réalité. Son hypothèse sous-jacente est que la technique est suffisamment élaborée et ne se modifiera pas rapidement. C'est le point de vue de l'ère préindustrielle, qui sera vite démenti.

II. — Terminologie

Alors que *terme* et ses équivalents en d'autres langues sont usuels, l'objet d'une « science des termes », distinct du langage, n'est explicitement reconnu que dans la seconde moitié du XVIII^e siècle. *Terminologie* apparaît en allemand sous la plume d'un professeur à Halle et à Iéna, Christian Gottfried Schütz (1747-1832) ; l'adjectif *terminologisch* est attesté en 1788. Peu après, en anglais, *terminology* concurrence *nomenclature*. C'est aussi en 1801 que *terminologie* est repéré en français, mais dans un sens polémique (« abus de termes incompréhensibles ») dans la *Néologie* de Sébastien Mercier.

L'emploi moderne de la notion objective s'élabore, semble-t-il, en Angleterre. La définition de William

Whewell (1), en 1837, donne au mot sa valeur scientifique, encore restreinte à un groupe de sciences : « système des termes employés dans la description des objets de l'histoire naturelle ». L'articulation des notions de « système », d'« objet » et de « science » à celle de « terme » donne à cette définition trop oubliée une actualité surprenante.

Le remplacement partiel et progressif de *nomenclature* par *terminologie* implique un changement de point de vue, par le passage de *nom*, *nomen* à *terme*, *terminus* « borne, limite », puis — depuis Oresme — « ce qui limite et définit le sens ». On passe de l'idée d'une série de noms, liée à la classification taxinomique, à celle de « système de valeurs réciproquement définies ».

En français, si l'on en croit les dictionnaires du XIX^e siècle, *terminologie* marque souvent l'idée d'un ensemble de mots difficiles, obscurs et inutiles. On parle volontiers de *vaine terminologie* (l'Académie) (2), d'*argot* scientifique (Charles Nodier), etc. Seuls les dictionnaires spéciaux acceptent de donner une image objective de la notion (par exemple « ensemble des termes techniques d'une science ou d'un art et des idées qu'elles représentent », dans le *Dictionnaire des sciences, des lettres et des arts* de Bouillet, 1864, 7^e éd.).

Cependant, l'étude scientifique des systèmes de termes et la théorie du domaine n'ont pas reçu de nom. Le sens dans lequel *terminologie* est normalement employé ici n'est mentionné que comme rare et étymologique dans le dictionnaire d'Oxford

(1) Epistémologue et moraliste anglais (1794-1866), dont l'*Histoire des sciences inductives* (1837) et la *Philosophie des sciences inductives* (1840) constituent un jalon important de l'histoire des sciences et l'un des textes fondateurs de l'épistémologie.

(2) De nos jours, c'est le jargon des sciences, qui est dénoncé (Ettemble).

(11^e volume, 1933) ; il n'est admis que dans la troisième édition du *Webster (field of study)* et, en français, dans l'édition de 1978 du *Petit Robert* : « Etude systématique des termes [...] servant à dénommer classes d'objets et concepts... ; principes généraux qui président à cette étude. » Cet emploi était fréquent en allemand et en russe, depuis quelques décennies. En français, il n'a dû se développer qu'après 1960, ainsi que le dérivé *terminologie* (d'abord au Québec). Encore aujourd'hui, la terminologie-discipline n'est pas bien reconnue : les dernières encyclopédies parues en français l'ignorent superbement. L'un des objectifs de ce petit livre est de combler une lacune persistante de la terminologie, précisément, qui recouvre peut-être une réticence plus profonde.

III. — Notes sur la constitution du domaine

1. L'âge classique (dix-septième - dix-huitième siècle) en Europe occidentale. — A cette époque se produit la synthèse entre une théorie du langage, une réflexion sur le savoir, une mathématisation accrue des connaissances, une prise de conscience quant aux progrès techniques, une attitude pédagogique universelle, « encyclopédique ».

La conception du langage s'organise d'une part autour de la « grammaire générale », héritière de la sémantique antique et médiévale et de la tradition empirique anglo-saxonne. L'*Essai sur l'entendement humain* de Locke est sans doute alors le texte le plus influent traitant des rapports entre pensée, connaissance et langage. L'inflexion psychophysique donnée à ces doctrines par Maupertuis et surtout Condillac (le « sensualisme ») est combattue en profondeur par une pensée formaliste mal comprise à l'époque : celle de Leibniz, qui s'était attaqué avec force à Locke (*Nouveaux essais sur l'entendement humain*).

Locke et Condillac, hostiles à l'innéisme, Leibniz, pour-

fendeur du mécanisme, limitent assez rapidement l'influence de Descartes en matière de théorie de la connaissance. Aussi l'idée d'une « linguistique cartésienne », chère à Noam Chomsky, est à critiquer très sévèrement, sinon à éliminer. A la fin de la période, la synthèse critique de Kant va reposer le problème en termes nouveaux. La primauté du jugement sur le concept, celle de l'activité logique de l'entendement sur les mots ont néanmoins pour effet d'éluder le problème fondamental de la prégnance des structures du langage et de leur importance dans l'analyse du monde par la pensée, sur lequel les philosophes du XVIII^e siècle avaient fortement insisté.

Pendant l'époque classique, une réflexion systématique sur les « arts » et leur pratique se fait jour. Après Francis Bacon, philosophe des sciences, des techniques et du langage — et en qui on pourrait voir l'ancêtre de la terminologie moderne —, de nombreux esprits y contribuent. C'est Abraham Bosse, qui distingue en 1643 la théorie technique — qui deviendra « technologie » — de la pédagogie et de l'exécution des règles. Ce type de réflexion continue celle du Moyen Age et de la Renaissance, mais l'évolution économique lui donne une importance toute nouvelle. Descartes, de son côté, réclame une pédagogie technique organisée.

Au centre du débat, le problème terminologique. La synthèse de l'*Encyclopédie*, on vient de le voir, est essentielle, et correspond au précepte selon lequel une science est d'abord une langue bien faite. Sur le plan philosophique, l'« idéologie » de Destutt de Tracy tente de superposer à la science du langage une science des idées qui la domine. Archaïque sur certains plans, cette tentative a le mérite de définir un manque théorique et pratique, celui d'une sémiotique générale — d'une logique des signes — déjà pressenti par Locke.

2. Réglage social du langage et développement technoscientifique au dix-neuvième siècle. — Pour Michel Foucault, la fin du XVIII^e et l'aube du XIX^e siècle marquent un moment clé de l'histoire des idées, par une mutation profonde du savoir. De fait, à travers les développements continus que *Les mots et les choses* ont parfois talentueusement camouflés ou brisés, plusieurs structures se mettent en place.

La naissance d'une science d'observation portant

sur les langues et leur fonctionnement propre, la « linguistique », agit sur la conception de la dénomination : on ne peut dénommer que *dans une langue*, système dont les structures sont fonctionnelles et formelles — on découvre alors la nécessité d'une science des formes ; le mot *morphologie* est créé par Goethe.

Sur le plan historique, les nationalismes alimentent des prises de conscience. Le romantisme identifie culture et langue (ou plutôt usage d'une langue), la philologie voit dans les textes le seul accès à la connaissance de l'homme historique et social. L'attitude triomphaliste, qui était celle du français au XVIII^e siècle, de même que les renoncements honteux au profit d'une langue prestigieuse cèdent du terrain ; des formes méprisées (les dialectes, l'ancien français, etc.) deviennent des objets d'intérêt. Après l'anglais, ce sont l'allemand, le russe, puis les langues de communautés brimées — les exemples abondent : hongrois, polonais, roumain... — qui réclament un statut culturel plus normal.

Dans une large mesure, les théories linguistiques s'élaborent pour justifier des besoins sociaux. S'il n'y a pas de « linguistique » au sens moderne, dans la France du XIX^e siècle (alors que la philologie est florissante), c'est un peu parce que le français, trop sûr de lui, n'a plus les moyens de ses illusions. Les créateurs de la nouvelle science sont Danois (Rask), Allemands (Grimm, Franz Bopp, après Schlegel, Wilhelm von Humboldt...). L'Europe et ses grandes langues internationales vont d'ailleurs céder en partie leur monopole de savoir.

Quant aux données sociolinguistiques, l'interventionnisme s'organise. En France, la politique jacobine d'unification inaugure, avec l'abbé Grégoire,

un autoritarisme très conscient et passablement brutal (1). Les brassages résultant des évolutions socioéconomiques — urbanisation, industrialisation, transports... —, le développement de l'éducation des masses, joints aux prises de conscience nationales, suscitent et stimulent des politiques explicites quant à la norme culturelle et linguistique. Dans les Etats développés, c'est la répression organisée des langues et des usages minoritaires, par ailleurs valorisés littérairement : en France, certes, comme on le sait depuis les réactions libérales et régionalistes récentes, mais aussi en Grande-Bretagne, où disparaissent, non sans pressions et violences, les langues celtiques ; mais aux Etats-Unis, où le *melting pot* fait fondre les traditions culturelles des émigrés au profit d'une civilisation unilingue, et où l'on assassine les langues indiennes avec leurs locuteurs. A part quelques formations politiques (Suisse, Belgique...), peu d'Etats modernes échappent à une normalisation unifiante qu'il est facile de dénoncer avec indignation, mais qui est liée aux nécessités de la vie des nations et des Etats.

Dans le même temps, le colonialisme impose à des communautés immenses quelques langues d'administration, de commerce et de culture, qui perturbent tous les équilibres linguistiques, mais ouvrent les groupes sociaux asiatiques et africains sur le monde : l'anglais, le français, l'allemand, le néerlandais, après l'espagnol et le portugais, y augmentent considérablement leur rôle mondial, par une violence historique qu'on ne surestimera jamais.

Le lien de ces évolutions avec le problème terminologique est évident : les besoins de dénominations,

(1) Voir M. de CERTEAU, D. JULIA, J. REVEL, *Une politique de la langue*, Gallimard, 1975, « Bibl. des Idées » ; A. REY, *Révolution, histoire d'un mot*, Gallimard, 1989.

extraordinairement augmentés, s'inscrivent dans le cadre plus rigide de quelques langues manipulées par des Etats forts.

Ces besoins n'augmentent et ne s'organisent que dans la mesure où les sciences, les techniques, les échanges d'information voient se produire une mutation et une accélération spectaculaires. On trouvera dans les histoires des techniques les données pragmatiques de cette évolution (1). Grâce au puddlage, par exemple — inventé en 1783 — la métallurgie va prendre son essor ; grâce aux inventions anglaises du XVIII^e siècle, l'industrie textile se développera. Surtout, le recul de l'empirisme artisanal, dénoncé par Diderot, et la scientification des pratiques techniques modifient les données. Des savants de premier plan ne dédaignent pas les applications industrielles de leurs travaux (ex. : Berthollet, Chevreul). Les progrès de l'optique donneront directement naissance à des techniques industrialisables (photographie, etc.), la mécanique théorique permettra la maîtrise des sources d'énergie, etc.

Les besoins de désignation se multiplient donc avec le discours technoscientifique, dans quelques langues unifiées parlées par de grandes communautés politiques. La technique moderne, tout en compliquant immensément les moyens et les procédés, les généralise et les unifie, rendant possible une relative homogénéité des vocabulaires.

3. La fin du dix-neuvième siècle et le vingtième siècle voient de nouvelles et dramatiques muta-

(1) Consulter les nombreux volumes de la collection « Que sais-je ? » consacrés à la question, à commencer par P. DUCASSÉ, *Histoire des techniques* (n° 126). Pour un plus ample traitement, M. DAUMAS, *Histoire générale des techniques*, Paris, PUF, 1964-1969, 3 vol. ; *Histoire des techniques*, sous la direction de B. GILLE, Paris, Gallimard, 1978 (Encyclopédie de la Pléiade).

tions. De profonds changements s'opèrent sur tous les fronts : l'économique et le pratique, le pouvoir social et politique, le savoir et la science, enfin. Or, les besoins urgents et concrets auxquels la terminologie doit répondre — voir ci-dessous, III^e Partie — l'incitent à s'abriter derrière un système de pensée un peu figé — voir la II^e Partie — ceci au moment même où le désir d'efficacité conduit à la doter de moyens automatiques : le greffage de l'électronique et de l'informatique sur des artisanats relativement archaïques conduit à de graves désillusions : la traduction a vécu cette situation, la lexicographie s'y débat. On verra là le reflet très spécifique d'un problème général : les méthodes issues d'applications de sciences plus formalisées sont difficilement utilisables dans des savoirs plus incertains, qui s'illusionnent du nom prestigieux et incontrôlé de *science*.

Pour revenir à l'objet terminologique, et notamment aux pratiques techniques, nous assistons à la généralisation des processus à l'échelle de la planète. Celle-ci engendre la coexistence de divers niveaux techniques, du néolithique à l'atomique, en de nombreux points du globe. Ce facteur de complication est loin d'être le pire. En effet, la circulation intense de l'information, liée à l'évolution socio-politique et technique, est associée à des effets perturbants : vulgarisations trompeuses, utilisations idéologiques des données de la « science », débats mal posés, engorgement, par excès et confusion, des canaux d'information (au propre et métaphoriquement), névroses collectives créés par une sélection intéressée ou même aléatoire de l'information (1).

(1) Bien que les données soient, à l'origine, expérimentales, les répercussions sociales des thèmes technoscientifiques, engouements ou phobies, utilisent de manière détournée le matériel à des fins

Parallèlement, la scientification des pratiques rend de moins en moins possible la circulation du savoir sans déformation majeure, et ceci malgré les incontestables progrès de l'éducation et de l'information quantitative. Le rôle de la terminologie en tant que thérapeutique du discours et du savoir (la chasse aux mots puissants, vagues et creux, les « perroquets » que dénonçait avec ardeur Valéry, témoin et critique majeur du confusionnisme intellectuel) ne cesse de devenir plus indispensable à mesure que la tâche se complique.

Quant aux structures de pouvoir — économiques, politiques, sociales — l'évolution est plus dramatique encore : les techniques de manipulation de l'opinion, celles de la lutte pour le pouvoir et de la répression — jusqu'à la torture et au génocide — ont pris le relais des affrontements bruts.

La crise du savoir affecte d'abord et surtout sa transmission, on vient de le constater, mais aussi sa constitution. Le rapport de connaissance, la relation sujet-objet a cessé d'être conçue comme miraculeusement simplifiée, épurée par la science. Celle-ci admet et professe que le sujet (1) est dans l'objet, qu'il le modèle. Des philosophes et des poètes, ce thème a gagné les sciences de la nature : depuis Bohr et Heisenberg, aucun épistémologue ne peut l'éluder. Liées à la crise du signe, les questions anxieuses de l'anthropologie manifestent la profonde angoisse du savoir théorique. Dans le dernier chapitre de *Les mots et les choses*, Foucault s'interroge sur la stabilité d'un avatar somme toute récent de l'histoire des idées : l'homme en tant qu'objet de connaissance. On peut aussi se demander si la cohérence présumée du sujet et de l'objet de savoir ne modifie pas alors le fonctionnement même du concept de « science », construit par et pour des

difficilement discernables : qu'on songe au caractère des discours tenus sur l'exploration spatiale, les facteurs cancérogènes, la maladie, la pollution, la météorologie...

(1) Autre question : quel sujet ? La phénoménologie, le marxisme, les psychologies profondes ont fait éclater l'illusion d'un pur sujet de savoir, porteur du *logos*, la raison-parole qui construit ou relient une Vérité. L'homme n'est plus seulement l'« animal raisonnable ».

objets (formels ou naturels) non humains. A vouloir découvrir l'Homme, la science pourrait bien s'être condamnée à changer de nature. Les rapports entre science et technique paraissent perturber aussi les liens admis entre théorie et pratique. Les terminologies nées dans les sciences formelles ont pris pied dans celles de la nature, puis dans le domaine de la spontanéité langagière : celui de l'image de l'homme et de ses activités. Pas de terminologie technique sans vision scientifique, et d'abord scientifique, de l'activité humaine, et donc sans projet d'une « science de l'homme ». Mais à peine a-t-on cru à cette scientification du vécu que les systèmes de concepts et de noms qu'on croyait les plus assurés s'interrogent sur leurs fondations. Du coup, tout est remis en cause : les noms, les notions font autant problème en mathématiques qu'en sociologie — ou en cuisine. Les secteurs en apparence préservés : nomenclatures, sciences appliquées, institutions, vont précisément faire l'objet de la pratique dénommée *terminologie* ; elle semble s'y mouvoir à l'aise. Mais l'importance de ces domaines est toujours dérivée par rapport aux secteurs clés, lieux de la mise en question, ou assujettie à celle des discours.

Le positivisme rigide qui gouverne souvent la théorie terminologique est probablement une étape nécessaire, au moment de sa constitution. Mais le décalage entre la volonté de description et la méconnaissance des objets à décrire condamnerait cette activité à l'impuissance (ou au statut modeste d'aide à la traduction, à la documentation), alors qu'il s'agit véritablement d'un corps de connaissances indispensables pour satisfaire à un besoin fondamental, préalable à tout réglage social.